اشتغالات الهوية في شعرية مظفر النواب

م.د فوزي ثعبان منسي

Received: 17/11/2020 Accepted: 28/12/2020 Published: 2021

اشتغالات الهوية في شعرية مظفر النواب

م.د فوزي ثعبان منسي

جامعة المستنصرية - كلية التربية الأساسية - قسم اللغة العربية

Fawzyalmawla@yahoo.com

07704536174

المستخلص:

الناقد المتصدي لشعرية مظفر النواب عندما يزعم أن الموضوعية غير موجودة ما لم يكن المعنى نفسه غير متغير، وقد جاء هذا الزعم كرد فعل على يأس محتمل بإزاء ما يراه (بلبلة التأويلات) مشيراً كذلك إلى التوالد الراهن للمزيد من التأويلات الجديدة ومناهجها، كما أنه في الوقت نفسه يرى في الموضوعية التي تنزرع كامنة في تاريخية جذرية شاخصة في أعمال مظفر النواب وسيرته الذاتية بوصفه (مناضلاً) سياسياً من العراق، فهو يحمل فكراً وطنياً وقومياً واقعياً متراكباً أو مندمجاً أو منسجماً مع تطلعاته الإنسانية، فاللغة الشعرية ليست كينونة ثابتة بل متحركة وفعالة، وهي انتماء قبل أن تكون وصفية أو جمالية، وقد حضرت اشتغالات الهوية في نصوص الشاعر مظفر النواب بوصفها ثيمة متجددة لا تُقيَّد ولا تُحجم ولا تستكين، فهو الحالم أبداً في وطن يقدس فيه الإنسان كما تقدس الأديان لأنه أصل التشريع وأساس له، فالفقر والفقراء، والجياع، والمعذبون، والثوار هم من ينتمي إليهم الشاعر ومن همومهم اشتق أسلوبه المميز منحازاً للقضايا الإنسانية والعربية أينما وجدت فشعريته غاضبة ثائرة وصادقة مخلصة من دون أن تتخفي خلف أي رمز أو استعارة أو تلون أو دجل وهو الناطق بلسان حال الجماهير الحركية دائماً، متجاوزاً ذاته إلى دوائر أوسع وأشمل في موقف فكري عالمي ظهر واضحاً في نصوصه الشعرية.

الكلمات المفتاحية : مظفر النواب ، اشتغالات الهوية ، الشعرية ، الوطنية ، الإنسانية

(اشتغالات الهوية في شعرية مظفر النواب)

تهدف محاولة فهم النص الشعري الحديث إلى مركز الصدارة في نظر النقاد والدارسين للتغلب على الارتباك والالتباس اللذين يعتريان إمكانية التأويل الصحيح (القراءة المقاربة)، وإذا علمنا أن القراءات والمقاربات تتوالد في الراهن المعاصر فيكون مفهوماً عندئذ السبب الذي يدفع النقاد إلى العناية مجدداً بالحاجة إلى الاهتمام بموضوعة الهوية: الهوية الشخصية للشاعر، وهوية النص الأجناسية، وصفاته، وعلاقته بالهوية العامة، وقد يذهب هذا التأكيد بالاتجاه المعاكس، ويصبح دوغمائياً عندما تواجهه النزعات الذاتية، وهناك اختلاف واضح بين النزعة الذاتية والنزعة الموضوعية، فقد يكون لدى أي مؤول هدف عملي في رؤية تأويلية وهو يحظى بالقبول عند أكبر عدد ممكن من القراء، وبذا تكون الموضوعية ضمن هذا المعنى نسبية، ومن ناحية أخرى تصر النزعة الموضوعية النظرية على أن هناك معنى لا يتغير من حيث المبدأ وينبغي الاهتمام به سلفاً بوصفه هدفاً لكل تأويل، إذا ما أريد الاعتقاد بأن بعض التأويلات حقيقية أو صحيحة أكثر من غيرها، ونظراً لاستمرار ظهور تأويلات جديدة يقدم هذا الأساس الموضوعي بوصفه هدفاً غير محدد، وقد لا يتحقق إلا ضمن دائرته أو منظومته المفهومية الخاصة، وينبغي بهذه الموضوعية النظرية أن تبرهن على ضرورة وجود " شيء جوهري " ، وتكون قادرة على معرفته وسبر أغواره، ووضعه بوصفه رهيناً لتأويلات عدة، ثرية ومكتنزة، " فجوهر عملية التأويل هو الكشف عن ما يكمن خلف الأشياء الظاهرة من دلالات ومعانٍ ومحاولة كشف الغموض البادي في الظاهر بالتعمق خلفه والكشف عن آفاق للمعاني لا تدركها من مجرد النظرة الظاهرية الخارجية " [1]. ويجازف الناقد المتصدي لشعرية " مظفر النواب " بطرح مثل هذه التخريجات عندما يزعم بأن الموضوعية غير موجودة ما لم يكن المعنى نفسه غير متغيّر، وقد جاء هذا الزعم كرد فعل على " يأس " محتمل بإزاء ما يراه " بتناقض التأويلات واختلافاتها "، مشيراً بذلك إلى التوالد الراهن للمزيد من التأويلات الجديدة ومناهجها.

ويتمثل المشروع الكبير في إظهار مثل هذه الاختلافات في التأويل من حيث المبدأ في الأقل ليست سمة للتأويل الأدبي بالضرورة، كما أنه في الوقت ذاته يناضل تحديداً ضد الشكية في الموضوعية التي تتزرع كامنة في " تاريخية جذرية " شاخصة في أعمال " مظفر النواب " وسيرته الذاتية بوصفه مناضلاً يسارياً في العراق والعالم العربي أجمع، فهو يحمل فكراً وطنياً وقومياً وأممياً متراكباً أو مندمجاً أو منسجماً مع تطلعاته الإنسانية المطلقة.

وهناك من يقدم الزعم المضاد المتمثل بقوله إنه في الوقت الذي قد تختلف فيه أهمية شعرية ما مع مرور الزمن وضمن مختلف السياقات التأويلية لا تتغير الأهمية التي تشكل أساس العمل ومعناه، وهكذا يقال إن معنى النص الشعري – الذي يمثل بناءً على هذا التفسير المعنى الذي أراده المؤلف – متطابق مع نفسه ومحدد بإطاراته المرسومة بدقة ويمكن إعادة إنتاجه من جديد (أي إنه قابل للمشاركة وليس خاصاً)، ويُعد الفهم الذي يقبض على هذا المعنى المحدد وغير المتغيّر فهماً محايداً تماماً ولا تشوبه شائبة، لأنه لا يكون هدفاً من أهداف المؤول المعيارية أو رأياً من آرائه الخاصة بأهمية العمل، ونعتقد أن من الممكن الحديث عن صلاحية التأويل المنصب على شعرية " النواب " بناءً على هذه الأسس فقط. ولكي نفهم رموز وأمثولات " النواب " فمن الضروري فهم مشاغله النضالية (جهازه البلاغي من استعارات ومجازات وكنايات ... إلخ..)، فالتمييز بين معقول النص وتفسير النص يُعد حاسماً عند " النواب " وشعريته المقاتلة المستبسلة، إذ يحيل المفهوم الأول على بناء معنى النص بلغته الخاصة بينما يشير الآخر إلى تفسير المعنى، وربما يكون ذلك بمصطلحات تختلف عن مصطلحات النص واهتماماته اللغوية إلا أنها تكون مألوفة أكثر بالنسبة للمؤول ولجمهوره.

وفي الوقت الذي تشير فيه كلمة " تأويل " عادة إلى كل من اللحظتين، يستعمل " النواب " مفردات " الثورة " و " الانقلاب " و" تغيير أنظمة الحكم " و" الكفاح المسلح " مقابلاً لمعقول النص ، ومفردات " الحب " و " السلام " و " الربيع " و " الاخضرار " مقابلاً تفسير النص وحل عقده القرائية المتشاكلة. ولا بد من تمييز " الفهم " و " التأويل " في الشعريات السياسية عن لحظتي العملية التأويلية الأخريين ، أي " الحكم / حكم القيمة " و" النقد / الحساسية القرائية " تمييزاً أكبر، فبينما يختلف الفهم عن التأويل من حيث أن الأول يشتمل على بناء المعنى ويشتمل الآخر على تفسيره ، ويكون لكليهما معنى النص بذاته، بوصفه موضوعاً وتأسيساً على المقاربة التي سنقدمها لاحقاً لا يكون للنص " معنى " فحسب ، بل " وحدات دلالية " صغيرة وكبيرة تواصل تجمعها وتكثفها لتكون مقابلاً نديا للمعنى الكبير[2]. وكثيراً ما يحتجب التأويل وراء التقويم ويحكم على النص في ضوء الاعتبارات الخارجية، ومن الممكن عندئذ تفسير فعل الحكم هذا بذاته ومناقشته، لأنه يفسر العلاقة بين النص النوابي ومفهوم الهوية بشتى تلاوينه الأقنومية " فالنصوص لها معنى عام وشامل وثابت ومطرد في الطبيعة البشرية، يدركه كل إنسان ببداهته العقلية، ويظهر في كل موقف، ويوجد في كل حضارة " [3]. إن نشاط التفسير والمناقشة تحديداً، هو ما يسمى بـ " النقد " في حين يكون " المعنى " موضوعاً للفهم والتأويل، وتكون " الهوية " موضوعاً للحكم والنقد، أي إنها بعبارة أخرى، أية علاقة مقصورة بين المعنى اللفظي للنص، وشيء آخر يستوعب واقعية الواقع أو عالمية العالم، وواقعية الواقع هي واقعية الشعر، وعالمية العالم هي عالمية الشعر. وبما أن الهوية تعني الذاتية والخصوصية وهي مجموعة قيم ومثل ومبادئ تتشكل لتكون المرتكز لصيرورة الشخصية الفردية أو الجماعية، ولأنها الوعي بالذات الاجتماعية والثقافية تتحول تبعاً للواقع وتتكون من عقيدة ولغة وثقافة

وحضارة وتاريخ[4] يصل عبره الفرد إلى بيئته الاجتماعية والثقافية من خلال الإحساس بالانتماء والتعلق، فهي ليست شيئاً نشاهده، بل هي إشارات وإيماءات ذاتية تنبثق من الإنسان نفسه لتدل عليه وتكشف عنه، وتتخذ من اللغة والثقافة أهم أشكالها. ولكون الهوية الثقافية هي نظام من القيم والتصورات يتميز بها أي مجتمع ما تبعاً لخصوصياته الحضارية فهي: " كيان يتطور باستمرار ويتأثر بالهويات الثقافية الأخرى ضمن مستوياتها الفردية والجماعية " [5] ، ويمكن أن نفترض وجود نوعين من الهوية: الهوية الفردية، والهوية الجماعية إذ تتميز الأولى بكونها ديناميكية تتغير بتغير الرغبات الشخصية كونها مرتبطة بالرؤية والوظيفة، وتعبر عن كيفية إدراك الفرد لمعناه الحسي، وتعبر كذلك بصورة أدق عن " رؤية الفرد للعالم والكيفية التي يجرد بها المعاني لكي يعكس قيمه الخاصة " [6]. أما الهوية الجماعية، فهي عادة ما تظهر للوجود عبر قدرتها على عكس معانٍ جماعية وترجمتها، هذه الهوية تحمل معاني ضمنية قادرة على الاستمرار حتى مع التحولات الكبرى للمجتمعات المختلفة، إذ تمثل الهوية قيمة جمالية بارزة لها ودلالاتها الثقافية والاجتماعية والحضارية ولها وظائفها الأساسية في تحقيق التمايز الاجتماعي بين الأمم [7] ، فهي بمثابة لغة تعبير عن الذات والشخصية والانتماء، وعلى وفق ذلك تشكل الهوية في حد ذاتها مجالاً للتحليل النقدي، بل التاريخي والاجتماعي والثقافي عبر محاولات تأكيد الهوية والبحث عنها في الأدب العربي لا سيما الشعر، وتتأكد أهميتها رافداً من روافد المعرفة التي تمنح هذا الحقل وهجاً أكبر، فالإنسان لا يولد ضمن استراتيجية محددة وواضحة للتعامل مع الوجود، وإنما يحتاج إلى أن يتعلم كيفية بناء هذه الاستراتيجية ضمن قدرة زمنية، وضمن بيئة معينة لها قيمها وأعرافها، وهذا ما يجعل الهوية دائمة الحضور تخضع لاحقاً لديناميكية التحول من الداخل لأنها غالباً ما تتشكل من جزئيات في حالة تغير مستمر ما يجعلها تستجيب للمعطيات التي تصنع الجزئيات، فهي متحركة غير ثابتة كما هو العالم في حركته والإنسان المبدع هو الذي يمارس الإفصاح عنها على وفق التأثيرات، وفي هذا البحث سنحاول الحديث عن تلك التأثيرات التي رافقت تحولات الهوية في الشعر المعاصر وأبعادها وتجلياتها عبر بعض النصوص الشعرية لشاعر مبدع استطاع رسم هويته الخاصة والتي تأثرت بالأصالة والمشاعر الإنسانية بصيغة إبداعية متفردة كاتباً الحدث والتاريخ بوعي هادف وذكاء حاذق، وهو يجوب مدن الفقر والعوز. إن شعر مظفر النواب يدفعنا إلى القول بأنه نبض الشارع الذي لا يهدأ ولا يستقر بهويته الوطنية والإنسانية التي تعبر عن موقف واعٍ في الصراع ضد الشر والظلم أعطته بعداً أممياً ووطنياً وقومياً فضلاً عن البعد الاجتماعي الذي يشكل أساساً الحاضنة السوسيو – ثقافية لشعرية " مظفر النواب ".

هوية النواب الشعرية:

شهد الواقع العراقي تحولات كبيرة منذ نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن العشرين على المستوى السياسي والاجتماعي وحتى الاقتصادي، وهذا انعكس على الوعي الجمعي ومن ثم كان التأثر والتأثير واضحاً جلياً على التكوين الثقافي لجيل من المثقفين العراقيين، فهذه العوامل التي عاشها المثقف العراقي أسهمت بشكل كبير في تكوينه ثقافياً وبالتحديد شعرياً، فظهرت ما تسمى بالاختلافات

الفكرية والآيدولوجية التي أفرزت جيلاً واعياً قرأ التراث وحاول إنتاج هوية ثقافية جديدة للخروج بالنص الشعري إلى فضاء أوسع تمهيداً لقصيدة تتجاوز بعض المحرمات وتدافع بشكل كبير عن قضايا الإنسان وهمومه، وهذا ما أسهم في تأسيس الهوية الثقافية لهذا الجيل وبتميز واضح ولعل من أهم رواد الشعرية التي شكلت كينونتها وأفرزت هويتها الثقافية حتى أضحت علامة فارقة في الشعر العراقي والعربي هو الشاعر مظفر النواب لما قدمه من انتماء حقيقي للإنسان أينما وجد مدافعاً عن قضاياه وهمومه، فقد تمثلت قصيدته بوعي تام وقدرة عالية على تلخيص الواقع بالرغم من مرارته وترتقي بالشاعر إلى تجاوز الواقع القائم للوصول إلى الواقع الممكن عبر التخييل الشعري الذي يتخطى أزمة الإنسان المزدوجة: مأساة الوجود البشري والأزمة الاجتماعية [8] . وبذلك استحقت هذه القصيدة عناية خاصة وقراءة متأنية للكشف عن بعض إمكانات الشاعر ونواحي تميزه، فليس أفضل من الانطلاق من واقع النص الشعري قراءة وتحليلاً، والابتعاد عن محاولات التنظير وإطلاق أحكام عامة ربما تنطبق على أي نص شعري من دون أن تلامس الخصائص الموضوعية والذاتية التي تمنح الشعر هويته الخاصة، فالنص الشعري أفضل ممثل للشاعر وكاشفاً عن إمكاناته ورؤاه، وهذا ما يسجل مهارة الشاعر في تناوله الحياة بسخريتها ومرارتها كلها، وعلى وفق هذا فقد تشكلت لغة التعبير عن الواقع الممكن عند الشاعر " مظفر النواب " عبر مسارين، الأول هو التصريح المباشر لجعل المتلقي أمام فهم دلالة ما باستعمال المكان والأسماء المباشرة وتوظيفها بطريقة يمكن لهذا المتلقي أن يكون أمام نص صريح وواضح للتعبير عن الهوية التي تتحدث عن الحقائق والتعلات والمحن التي تمر بالأمة التي ينتمي إليها الشاعر وطنياً وقومياً. أما المسار الآخر، فيكون عبر الترميز في استعمال الرموز الماثلة في أذهان الناس عبر توظيفها بالشكل الذي يجعل منها عبارة عن وحدات متواترة من التجليات التي يملأ بها شعره وما يفيض من الصور والمعاني والتمثلات، إذ " يبقى الرمز عند مظفر النواب لفترة قصيرة ضمن التداعيات الوجدانية التي تتخللها لمسات تاريخية هادفة ثم ما يلبث العودة إلى واقعيته المعروفة"[9]، لأن مسألة تشكيل الهوية الثقافية تتعلق بشكل أو بآخر بعلاقة المثقف بالأحداث والتطورات ويقف عندها، بمعنى آخر إن هذه الهوية تتضح بصورة جلية في قراءة شاملة للمسار الثقافي والاجتماعي والسياسي والآيديولوجي لهذا المثقف نفسه، وذلك عبر عدد من التساؤلات حول هويته ووظيفته الثقافية ومسؤوليته وتكوينه ومواقفه الحاسمة تجاه هذه القضايا فضلاً عن علاقاته المختلفة مع السلطة ومع الثقافة ومع المثقفين من أقرانه ومعاصريه ومع الأغلبية الصامتة في الوقت نفسه. فجاءت الهوية بأبعادها الثلاثة عنصراً مهماً في شعر " مظفر النواب " كتعبير عن شخصيته

وكدلالة مميزة لقضاياه الإنسانية التي ينتمي إليها، إذ ترتكز الهوية في شعره على مرتكزات عدة، بمعنى أن مظاهر التعبير عن الهوية عند " النواب " يمكن أن تتجلى عبر هذه المرتكزات، وهي بالأساس استجابة واضحة للأحداث التي مرت بها الشعوب العربية امتداداً من الماضي إلى الحاضر، لذا جاءت استيعاباً للتغيرات المتلاحقة والأحداث الكبيرة التي استشعرها " النواب " بحساسية نقدية عالية ومن هذه الأبعاد:

- **البعد الوطني :**

دائماً ما يأتي الاهتمام بالبعد الوطني في بواكير الأعمال الشعرية لدى " مظفر النواب " و(معظم الشعراء)، لأن الشاعر يكون عادة ملتصقاً ببيته الذي ولد فيه، وشارعه، ومدرسته، وعائلته، ومدينته، ولم يعرف بعد أن هناك عالماً شاسعاً من الأماكن والشواهد والوجوه خارج مدينته أو وطنه، إذاً الاهتمام بالهوية الوطنية يعد الشغف الأول للشاعر، وشباك حنينه الذي لا يريد إغلاقه، وتعكس الهوية الوطنية في الخطاب الشعري عند الشاعر " مظفر النواب " صورة مشرقة لما وصل إليه من وعي بقضايا وطنه وهموم شعبه، فلا شك أن هذا التوجه لدى الشاعر لا يأتي من طرف واحد، بل هو حصيلة تفاعل بين الشاعر بوصفه فناناً مبدعاً موهوباً، وبين بيئة بكل جزئياتها، إذ تعد البيئة ذات الشأن الأكبر في تشكيل شخصيته وهويته سواء أكانت بيئة أسرية أم مجتمعية ممتدة عبر الزمان والمكان، أو نفسية مرت بمراحل عدة من يأس وحزن إلى تصورات ورغبات يحلم بها الشاعر ويرجو تحققها، فلقد ساهم غياب " النواب " وعدم تواجده على أرض بلاده بسبب الاضطهاد السياسي الذي عانى منه الشاعر وأسهم في جعله صوتاً وطنياً نادراً إذ يقول:

مـــــرة أخـــــرى علـــــى شـــــباكنا نبكـــــي

ولا شـــــــــيء ســـــــــوى الـــــــــريح

وحبـــــات مـــــن الـــــثلج علـــــى القلـــــب

وحـــــزن مثـــــل أســـــواق العـــــراق

مرة أخرى أمد القلب بالقرب من النهر زقاق

مرة أخرى أحني نصف أقدام الكوابيس بقلبي

وأضيء الشمع وحدي وأوافيهم على بعد

وما عدنا رفاق[10]

تشكل الهوية الوطنية عند " النواب " انتماءه إلى القيم الفكرية، فالوطن بالنسبة إليه مجموعة من القيم قبل أن يكون رقعة جغرافية، قيم تحكي حكاية أناس آمنوا بهذا الانتماء ليكون هوية أغلى من أي شيء آخر، فخطابه الوطني هو امتداد جغرافي جامع لقيم فكرية وتراثية في بعدها التاريخي المتأصل في الذاكرة والكيان حينما يقول:

يا غريباً يطرق الأبواب

والهوى أبواب

نحن من باب الشجى

ذي الزخرف الرمزي والألغاز والمغزى

وما غنى على أزماته زرياب[11]

لعل شعر " النواب " أحياناً كان ناطقاً بلسان الجماعة الشعرية المعبرة عن هوى الوطن وشجاعة الموقف في قوله:

لقد تقلب طبعه عن ثابت فيه ويتنقل

فبعضي عاشق يصحو وبعضي عاشق كهل

وكـــاد .. لـــو كـــاد لا دبـــر ولا قبـــل

وأمســكه هــوى لــبلاده مــا بعــده غــزل

عراقــي هــواه وميــزة فينــا الهــوى خبــل

يرب العشق فينا في المهود وتبدأ الرسل[12]

أما عيش الوطن بتفاصيل الهوية والحياة والتحول الإنساني للأشياء، والتي تتشكل ضمن مكونات الوطن والهوية، فيعيشه الشاعر بمخيال محبيه فيرسم الوطن بالشكل الذي يتمناه كما يقول:

آه يـــــــا غربـــــــة النـــــــار

فـــــــي بلـــــــد الـــــــثلج

ابـــــــق طـــــــويلاً.. طـــــــويلاً ..

اعطنـــي فرصـــة للـــذهاب ولـــو مـــرة [13]

فالهوية الوطنية لا تقتصر عناصرها في شعر النواب على مكونات المكان والزمان والشخصيات، بل هي الجذوة المتوهجة في الجملة الشعرية والدلالة التي تحملها تلك الجملة وقد استلتها من الذاكرة والحياة ماضياً وحاضراً حينما يقول:

لـم يعـد فـي المحطـة إلا الفـوانيس خافتـة

وخريـــــــف بعيـــــــد .. بعيـــــــد

وتترك حزنـك بـين المقاعـد ترجـوه يسـرق

تعطـي لوجهـك صـمتاً كعـود ثقـاب نـدي(14)

ويعد الواقع من المصادر التي شكلت مضمون الهوية عند " مظفر النواب " فقد غدا أثر الواقع بمتغيراته المختلفة في جانبين:

- الجانب الحسي الذي يتمثل بالصور التي ترجع في موضوعاتها إلى مجالات الحياة اليومية والطبيعة، فنجده يوظف أدوات الحياة اليومية والموجودات لغرض إبراز هذه الهوية بالشكل الذي نتلمسه في شعره فيقول:

وأيقضـــني ريـــح الشـــباك علـــى وطنـــي

يـــــا وطنـــــي وكأنـــــك فـــــي غربـــــة

وكأنـــــــك تبحـــــــث فـــــــي قلبـــــــي

عـــــن وطـــــن أنـــــت ليأويـــــك

نحـــن الاثنـــان بـــلا وطـــن يـــا وطنـــي (15)

- الجانب الذهني ويتجسد في أمرين: الأول الذي يعنى بالمؤثرات النفسية حول موقف الشاعر الخاص من حركة الواقع السياسي والاجتماعي وتكراره لبعض الموضوعات التي تنم عن حالة نفسية معينة، فيعبر عن حالة الفقر والقهر السائدين في العراق فيقول :

يـــا بـــلادي يـــا حزينـــة البيـــوت

مـــــــدي يـــــــد الوشـــــــم

فقد عدت إليك بالمعاضد الخضراء في حياتي

يـــــــا حزينـــــــة البيـــــــوت

والآن..

والعالم برتقالة تدور في بنفسج الأرواح[16]

لعل من الجانب الآخر هو الذي يعنى بالمؤثرات العقلية التي تتصل بثقافته وخبراته الناتجة عن حركة الترحال والتنقل إذ تضفي فلسفة خاصة على المكان، فضلاً عن المؤثرات الدينية والشعبية إذ يقول:

علـــــــى ظلمـــــــة أيـــــــامي

أحمـــل لـــبلادي حـــين ينـــام النـــاس ســـلامي

للخط الكوفي يتم صلاة الصبح بأزمير جوامعها

لشـــــــــــــــــــــــــــــوارعها

للصـــــــــــــــــــــــــــــبر

لعلـــي يتوضـــأ بالســـيف قبيـــل الفجـــر[17]

- **البعد القومي:**

عادة ما يتماهى البعد القومي مع البعد الوطني في هوية واحدة تشكل النواة الصلبة لقدر الإنسان وهو يعيش في جغرافية مرسمة تاريخياً ودولياً وجيو - سياسياً ، مشيرة إلى وطن الأجداد نسباً، وارتباط الدم، بالرغم من صراعات التاريخ، ومؤامرات السياسية، وحسابات المصالح الدولية، فالقومية هي هوية أشمل من الهوية الوطنية، وبإمكانها استيعابها في هاضمتها الواسعة، فالهوية القومية هي اللغة العربية المشتركة (لغة القرآن الكريم)، وهي التاريخ المشترك، والهم المشترك، والمصير الواحد. وتجتمع المعاني الوطنية في شعر " مظفر النواب " لتتماهى مع بعدها القومي، فحب الوطن بوصفه جامعاً لكل العرب حاضراً في نصه وحياته، وكل الحضور يعلن الفخر بعروبته بوصفها عنصراً وجودياً وهوية ثابتة وانتماء إنسانياً لهذا الوطن الكبير، فتأتي قصيدته لتمثل رحلة البحث عن الوطن المفقود عبر البحث في كل المدن العربية التي زارها عن صور وطنه الذي فارقه، إذ كان لحركته في الترحال والتنقل الدور الكبير الذي ظهر واضحاً عبر مؤثرات نفسية وردود أفعال شكلت بدورها طبيعة شعره الذي يمثل تمرداً وسخطاً واضحين على الواقع العربي المزري وما وقع على الشعب العربي من ظلم فيقول:

لا نخـــدع ثانيـــة بـــالمحور أو بالحلفـــاء ج

فـــالوطن الآن علـــى مفتـــرق الطرقـــات

وأقصـــد كـــل الـــوطن العربـــي

فأمـــــا وطـــــن واحـــــد

أو وطـــــــن أشـــــــلاء (18)

ولقد حاول الشاعر " مظفر النواب " عبر وصف الأماكن والمدن العربية أن يرسل رسالة واضحة مفادها أن هذه المدن تمثل الصوت العربي الواحد، وبهذا فإنه يلجأ إلى أساليب التشخيص والتجسيد

محاولاً أنسنتها، فخاطبها بوصفها كائنات حية تتحرك وتسمع، فيطلق تلك الأماكن من الكائنية المجردة إلى فضاء يعج بالدلالات الموحية فيقول:

هـــــو الجـــــوع أكبـــــر آبائنـــــا الثـــــائرين

ومـــن كـــان هـــذا أبـــوه تغلـــب فيـــه الجمـــوح

متـــى مـــا تـــوزع هـــذه العمـــارات للفقـــراء

وتجـــــــــزر ألـــــــــف انتهازيـــــــــة

والســـلاح يقـــوم أداء لمهمتـــه ســـيقوم المســـيح[19]

فالحضور الطاغي لمقدرته التصويرية مكّنه من توظيف قلقه تجاه استدراج المتلقي للمشاركة بحزنه وثورته على الواقع العربي المتردي، لأن هموم شاعرنا هي هموم الإنسان العربي بعيداً عن الذاتية الضيقة إذ يقول:

صـــــــامدون بعمـــــــق العـــــــذاب

صـــــامدون بعمـــــق ليـــــالي التشـــــرد

والاغتصـــــــــــــــــــــاب[20] ج

ونجده يندد بالوضع الاجتماعي وإيقاعاته الرتيبة ويعلن رفضه وتمرده بنبرة عالية صريحة لهذا الواقع المزري الذي فقد الأمل لذلك يصرخ داعياً للتغيير نحو الأفضل مطالباً الجميع بذلك فيقول:

استيقظوا

استيقظوا

أيهـا النـاس اسـتيقظوا فهـم راكبـون علـيكم

وإلا فكونـــــــــــوا صـــــــــــحيحاً [21]

وكثيراً ما نجده يدعو بحرارة وحرقة للحفاظ على الهوية العربية والارتقاء بها إلى صناعة المستقبل، فهي الضمانة الفعلية والأكيدة لوحدة الوطن والحفاظ عليه في زمن تُبتلع فيه الأوطان وتتلاشى، وشاعرنا يحمل رؤية مستقبلية مخلصة للأجيال العربية كلها فيقول:

إن الريـــاح تنبئنـــي أن طوفـــان نـــوح هنـــاك

فـــــــابنوا الســـــــفينة ماكنـــــــة

أوقـــــــدوا جيـــــــداً يـــــــا شـــــــباب

نـــــــرى خشـــــــب الســـــــنديان

وكونـــــــوا لـــــــدى معمـــــــل الليـــــــل

نغطـــــي لهـــــذه الســـــفينة هيكلهـــــا [22]ج

فهو لا يعدم الأمل، إذ يعلن رفضه الصارخ للظروف اليائسة التي تعيشها الأمة العربية، وهذا ما يشكل جزءاً مهماً من شعر المقاومة عند " مظفر النواب " ، وهو يراجع أهم القضايا وهي القضية الفلسطينية الذي ظل مدافعاً عنها مناصراً لها فيقول:

أهلاً أهلاً

مـــن بـــاع فلســـطين ســـوى الثـــوار الكتبـــة؟

أقسمت بأعناق أباريق الخمر وما في الكأس من السم [23]

وقوله:

القـــــــدس عـــــــروس عـــــــروبتكم ج

فلمـــاذا أدخلـــتم كـــل زنـــاة الليـــل إلـــى حجرتهـــا

ووقفـــتم تســـترقون الســـمع وراء الأبـــواب

لصـــــــــــــرخات بكارتهـــــــــــــا [24]

ويتماهى الشاعر مع هموم الوطن الأكبر ومع مواطني العالم وشعوبه ويشاطر المدن العربية آلامها ويعيش ظروفها [25] ، ولا يتوانى عن منح الشعر دوره الأساسي في الدفاع عنها وعن مصير الناس فيها فيقول:

أرحـــــم مـــــن هـــــذه الـــــدنيا وســـــفالتها

فالعـــــــــالم آلـــــــــة إيـــــــــذاء

لا تتغيـــــــــــر بعـــــــــد الآن ولا الأرض

فإنـــــك بالاســـــم الأول أحلـــــى الأســـــماء

أقســـم أنـــك تتلفـــت الآن إلـــى بلـــد المـــوت

وقبـــــرك بعـــــض خيـــــام فلســـــطين [26]

وقد امتدت رؤية المقاومة عند " مظفر النواب " من النظرة الجزئية والإطار التقليدي انطلاقاً من مبدأ نبذ الاحتلال والتمرد عليه إلى حيث المقاومة بمفهومها الثقافي الأوسع لكل ما يهدد الحق والخير والجمال في البلاد العربية الأم " المؤطر الأساس لمشروع المقاومة الشاملة هو مؤطر ثقافي في الدرجة الاولى . ذلك لأن نجاحه مرهون بقدرته على إقناع أكبر قدر من الناس بإمكانية تحقيق المقاومة للأهداف الوطنية والقومية "[27] فالفهم الجماعي يمنح الأشياء المادية معنىً يساعد على تكوين الواقع فيقول:

بـــــــــــــــدأ الصـــــــــــــــمت

والطرقـــــــــــــات الصـــــــــــــغيرة

حطـــــــت علـــــــى كتفهـــــا صـــــبرها

والـــــــــدموع المباركـــــــة الـــــــزرق

كانـــــــــت تضـــــــيء البيـــــــوت ج

أمـــــــــام الغـــــــروب العظـــــــيم

وريـــــــــــــاح الســـــــــــماوات

تمســـــــح زرقتهـــــــا بالغســـــــل[28]

ولما وجد الشاعر أن الظروف الموضوعية للبلاد العربية تسير نحو الأسوأ بفعل تعطيل فاعلية القوى الثورية راح يقاوم هذه الأوضاع عبر الحلم والتطلع ليعلن موقفه بشجاعة، وما يبرر له هذا الموقف هو أن الشعر ذاته موقف من الكون والحياة والإنسان والقضايا الحاسمة في تاريخ البشرية فيقول:

اتهـم واقـتحم وبغيـر المنايـا البنـادق لا تلتـزم

قـل أنـا البندقيـة لسـت بزيـداً ولا المعتصـم

تـدلهم أعـرف ادلهمـي سـتبرق إذ تـدلهم

وتطـوي طريـا علـى نارهـا حيـث لـم يسـتقم (29)

- **البعد الإنساني:**

إن الحقل الأثير الذي قطف منه " مظفر النواب " أجمل قصائده وأروع جمله الشعرية هو حقل " الأممية " ، حيث العالمية والإنسانية جمعاء، وحقل " الأممية " دخله عندما ولج إلى الفكر الأممي، وأقصد به الفكر الماركسي الغني، وأدبيات مفكري اليسار العالمي: إنجلز، لينين، روزا لوكسمبورغ ، بيلخانوف كاوتسكي، تروتكسي، جورج لوكاش ... إلخ..، والفكر الماركسي غني بأطروحاته الأممية التي تشمل كل الطبقات المسحوقة والمضطهدة في العالم من عمال وفلاحين ومثقفين ثوريين، أي " البرولتياريا " بصورة عامة.

وبعد إقتناع عميق تبنى " مظفر النواب " الفكر الماركسي والأطروحات اليسارية العالمية وقضايا الفقراء والمعدمين، ومبادئ العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان ودافع عنها في كل المحافل التي حضرها وألقى قصائده فيها، وناضل بقوة في سبيل تحقيقها ودفع أثماناً باهضة ويبدو أن الدائرة الإنسانية في شعر " مظفر النواب " قد تمكنت من النمو والاتساع بشكل واضح ما يدعو المتلقي للوقوف عندها وتأملها، لأن إدراك الذات الوطنية والقومية من شأنه بلا شك أن يصب لصالح إدراك الانتماء الإنساني الشامل، والشاعر يعلن عن إنسانيته كبعد من أبعاد هويته ويعلن عن إدراكها في الوقت نفسه فيقول:

لست أميز من أوجه العابرين ملامحهم

كلهم وطني

وملابسهم وطني

تعالوا فقد أوحشتني السنين

وأمسك حقلاً بعينيه أثمار أيلول (30)

ونجد أن المعاناة الإنسانية لدى الشاعر تتركز كلياً على تجارب الضياع والخذلان في معركة الإنسان مع ذاته ومحيطه فيقول:

عشرون عاماً أخذوا وقتهم

وملابسهم

والرسائل

لم يتركوا لي سوى ألمي والبندقية

وذكريات تغيب(31)

وهذ المقطع بالتحديد هو صرخة معلنة من الشاعر يحتج فيها احتجاجاً مادياً وروحياً على الظلم الاجتماعي والامتهان لقضية الإنسان في كل زمان ومكان متجاوزاً حدوده الضيقة إلى فضاء الإنسانية

الأرحب حتى وصل بهذه القصائد إلى مبتغاه فهي ذات بعد دلالي واسع يمتزج فيه البعد الفني بالبعد الفكري لتكون ثورة على واقع الحياة ومأساوية الوجود فيقول:

حجـــزت الزمـــان لهـــم والبنـــادق والقلـــب

محتمـــــــــــــل حضـــــــــــــروا ..

ســـــكنوا القلـــــب مـــــن دون علمـــــي

ومحتمـــــل أنهـــــم فـــــي المحطـــــة

فـــــــي الـــــــزمن الصـــــــعب[32]

وأخيراً يمكن القول إن الشاعر " مظفر النواب " كان واضحاً في طرح الأفكار المدافعة عن الإنسان أينما كان، ووصل بذلك إلى مستويات رفيعة، إذ كان الكاشف لمنطقة مجهولة من التفكير والكتابة العربيتين، فكانت قصائده تنتقل من سقف لساني وأيديولوجي إلى سقف آخر مع الحفاظ على استقلال كل هوية مفهومية، مداخلاً بينهما لإنتاج قول متميز، وكأنه أراد أن يقول: بأننا نكتب ذاتنا وتاريخنا دون مراعاة أو خوف من أحد فقد استطاع أن يظهر الهمّ العربي ويكشفه بوضوح، فهي تجربة غنية تحتاج إلى إثراء وإضافة وتوسع.

الخاتمة

ويمكن إجمال استنتاجاتنا بنقاط عدة أهمها:

1- إن أغلب نصوص " مظفر النواب " الشعرية تمتاز باشتراكها بخاصية البحث المستمر لتحويل الخلاص الذاتي إلى رمز شامل.
2- قوة القصيدة النوابية في مواجهة جميع أشكال وصنوف القهر والاستلاب وتمخضها عن ذوبان الهم الفردي بالجماعي.
3- تجاوز الشاعر " مظفر النواب " عملياً الإطار المحلي إلى الإطار القومي العربي وتحوله إلى شخصية أدبية عربية ذات بعد وتأثير واضحين وهو يحمل هموم أمته العربية.
4- استطاع الشاعر أن يخط لشعره هويته الخاصة التي تميزه عن غيره من شعراء جيله.
5- يمكن عد النص " النوابي " متخطياً لحدود الأزمنة والأمكنة ومحققاً الكلية والشمولية عبر ارتكازه على إظهار هويته بأبعادها الثلاثة: الوطنية والقومية والإنسانية.

الهوامـــــــــش

[1]- الهرمنيوطيقيا واشكاليات التأويل والفهم في العلوم الاجتماعية ، د. احمد زايد مجلة حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، العدد الرابع عشر ، 1991 : 229-230 .

[2]- ينظر : دليل إرادة الذات بالقيم ، أ.د. طلعت عبد الحميد ، مكتبة الانجلو المصرية : 57 .

[3] - قراءة النص ، حسن حنفي ، مجلة الف ، العدد الثالث 1988 : 18 .

[4] - ينظر : الهوية والقومية والحداثة ، سلام كيله ، دار نون للنشر ، الاردن ، ط1 ، 2015 : 67 .

[5] - دينامية النص ، محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الداء البيضاء ، ط1 ، 1990 : 28 .

[6] - ينظر : المقاومة الثقافية في البيئة الحضرية ، دراسة تحليلية في تحولات الهوية العمرانية ، د. فارس شكري حميد ، دار البيروتي للنشر والتوزيع ، 2015 : 64 .

[7] - ينظر : الهوية الفلسفية المتخيلة بين التطور والتأزم ، اشرف صقر ابو ندا ، مجلة المستقبل العربي ، صادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ع423 آيار 2014 : 82 .

[8]- ينظر : كتاب نحو بنيوية الشعرية التكوينية ، مقالات في فكر لوسان غولدمان ، وجمال شحيد ، وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ط1 ، 1987 : 102

[9]- الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية ، عبد الواسع الهميري ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ، 1999م : 83 .

[10]- المجموعة الشعرية الكاملة ، مظفر النواب ، دار قنبر ، لندن ، 1996 : 1 .

[11]- المصدر نفسه : 76 .

[12]- المصدر نفسه : 88 .

[13]- المصدر نفسه : 164 .

[14]- المصدر نفسه : 33 .

[15]- المصدر نفسه : 316 .

[16]- المصدر نفسه : 359 .

[17]- المصدر نفسه : 452-453 .

[18]- المصدر نفسه : 570 .

[19]- المصدر نفسه : 413 .

[20]- المصدر نفسه :

[21]- المصدر نفسه : 348 .

[22]- المصدر نفسه : 348 .

[23]- المصدر نفسه : 478 .

[24]- المصدر نفسه : 478-479 .

[25]- ينظر : ويكون التجاوز ، دراسات نقدية في الشعر العراقي الحديث ، محمد الجزائري ، منشورات وزارة الاعلام ، مطبعة الشعب ، بغداد ، 1974 : 407 .

[26]- المجموعة الشعرية الكاملة ، مظفر النواب ، دار قنبر ، لندن ، 1996 : 5-6 .

[27]- تجليات ثقافة المقاومة في الشعر العربي المعاصر ، فادية المليح حلواني ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة محمد خضير بسكرة ، دمشق ، 2005 : 102 .

[28]- المجموعة الشعرية الكاملة ، مظفر النواب ، دار قنبر ، لندن ، 1996 : 522 .

[29]- المصدر نفسه : 539 .

[30]- المصدر نفسه : 160 .

[31]- المصدر نفسه: 161 .

[32]- المصدر نفسه : 162 .

المصـــــادر :

1- تجليات ثقافة المقاومة في الشعر العربي المعاصر ، فادية المليح حلواني ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة محمد خضير بسكرة ، دمشق ، 2005 .

2- دليل إرادة الذات بالقيم ، أ.د. طلعت عبد الحميد ، مكتبة الانجلو المصرية .

3- دينامية النص ، محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الداء البيضاء ، ط1 ، 1990.

4- الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية ، عبد الواسع الهميري ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ، 1999م.

5- قراءة النص ، حسن حنفي ، مجلة الف ، العدد الثالث 1988 .

6- المجموعة الشعرية الكاملة ، مظفر النواب ، دار قنبر ، لندن ، 1996 .

7- المقاومة الثقافية في البيئة الحضرية ، دراسة تحليلية في تحولات الهوية العمرانية ، د. فارس شكري حميد ، دار البيروتي للنشر والتوزيع ، 2015 .

8- نحو بنيوية الشعرية التكوينية ، مقالات في فكر لوسان غولدمان ، وجمال شحيد ، وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ط1 ، 1987 .

9- الهرمنيوطيقيا واشكاليات التأويل والفهم في العلوم الاجتماعية ، د. احمد زايد مجلة حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، العدد الرابع عشر ، 1991 .

10- الهوية الفلسفية المتخيلة بين التطور والتأزم ، اشرف صقر ابو ندا ، مجلة المستقبل العربي ، صادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ع423 آيار 2014.

11- الهوية والقومية والحداثة ، سلاك كيله ، دار نون للنشر ، الاردن ، ط1 ، 2015 .

12- ويكون التجاوز ، دراسات نقدية في الشعر العراقي الحديث ، محمد الجزائري ، منشورات وزارة الاعلام ، مطبعة الشعب ، بغداد ، 1974 .

Sources :

1- Manifestations of the Resistance Culture in Contemporary Arab Poetry, Fadia Al-Maleh Halawani, Journal of Human Sciences, Muhammad Khudair University, Biskra, Damascus, 2005.

2- A Guide to Self-Will with Values, Prof. Talaat Abdel Hamid, The Anglo-Egyptian Library.

3- The Dynamism of the Text, Muhammad Moftah, The Arab Cultural Center,Al-Bayda 'disease, 1st Edition, 1990.

4- The Poetical Self in the Poetry of Arab Modernity, Abd Al-Wasi 'Al-Hamiri, University Studies Foundation, Beirut, 1999 AD

5- Reading the Text, Hassan Hanafi, Alef Magazine, 3rd Issue 1988.

6- The Complete Collection of Poetry, Muzaffar al-Nawab, Qanbar House, London, 1996.

7- Cultural resistance in the urban environment, an analytical study of urban identity transformations, Dr. Fares Shukri Hamid, Dar Al-Beiruti for Publishing and Distribution, 2015.

8 - Towards the structuralism of formative poetry, articles on the thought of Lucan Goldman and Jamal Shehid, Syrian Ministry of Culture, Damascus, 1st Edition, 1987.

9- Hermeneutics and problems of interpretation and understanding in the social sciences, Dr. Ahmed Zayed, Yearbook of the College of Humanities and Social Sciences, Qatar University, 14th Issue, 1991.

10- The imagined philosophical identity between evolution and development, Ashraf Saqr Abu Nada, The Arab Future Magazine, published by the Center for Arab Unity Studies, Beirut, No. 423, May 2014.

11- Identity, Nationalism and Modernity, Slack Kayleh, Noon Publishing House, Jordan, 1st Edition, 2015.

12- The transgression will be critical studies in modern Iraqi poetry, Muhammad al-Jazaery, Publications of the Ministry of Information, Al-Shaab Press, Baghdad, 1974.

اشتغالات الهوية في شعرية مظفر النواب

م.د فوزي ثعبان منسي

Identity workings in the poetry of Muzaffar al-Nawab

Lec: Df. Fawzi Thuaban Mansi
College of Basic
Education / University of Mustansiriya
07704536174

Fawzyalmawla@yahoo.com

Abstract:

The critic opposing the poetics of Muzaffar al-Nawab when claims that objectivity does not exist unless the meaning itself is changed, and this claim came as a response to a possible despair in the face of what he sees (confusion of interpretations), also refrring to the current generation of more new interpretations andtheir approaches, and at the same time he sees in Objectivity that is impanted in a radical history is evident in his work and his biography, as a leftist militant from lraq, as he carries a national, national and international thought that is superimposed, integrated or consistent with his human aspirations. Poetic language is not a fixed, dynamic and effective entity, and it is an affiliation before it was descriptive or aesthetic.

Ldentity works appeared in the texts of the poet Muzaffar al-Nawab.

As a renewed theme that is not restricted, or restless, he is the dreamer at all in a homeland where man is sanctified just as religions are sanctified, because it is the origin and basis of legislation .

Poverty, the poor, the hungry, the tormented, and the revolutionaries are the ones to whom the poet belongs and from their concerns he derived his distinctive style biased towards humanitarian and Arab issues wherever I found, his poetry is angry, rebellious, sincere and sincere without disappearing behind any symbol, metaphor, coloration or quackery, and he is the spokesman for the condition of the wounded masses always, transcending himself into a wider global space and comprehensive in a global intellectual position that appeared clearly in his poetic texts .

Key word: Muzhaffar al-Nawwab- LdentityConerns- Poetics-Natioality - Humanitarianism